وأد البنات عند العرب في الجاهلية

عوامله الصحيحة وموقف الإسلام منه

للدكتور علي عبد الواحد وافي

لم يكن نظام وأد البنات متبعاً عند جميع العرب فى الجاهلية ، بل كان مقصوراً على بعض عشائر من ربيعة ، وكندة ، وطيء ، وتميم . وكانت الطريقة السائدة فى الوأد أن تحفر بجانب الوضع الذى اختير لولادة الأم حفرة عميقة ، فإذا ظهر أن المولود أنثى ، قذف بها حية عقب ولادتها مباشرة فى هذه الحفرة ، وهيل على جسمها التراب ، وبعضهم كان يلجأ إلى وأد بناته فى أمكنة خاصة بعيدة عن المنازل حتى لا يدنسها بجثثهن ورفاتهن . وأشهر مكان كان يجرى فيه الوأد على هذه الطريقة هو جبل أبى دلامة

وقد ظل هذا النظام متبعاً عند العشائر السابق ذكرها حتى قبيل الإسلام ، ثم ألقيت فى نفوس كثير من العرب كراهته ، وانكشفت لهم شروره ، وظهر لهم تنافره مع سنن الطبيعة ونواميس العمران ، فنهض كثير من ساداتهم إلى محاربته والعمل على التخفيف من آثاره ، وكللت جهودهم هذه بالنجاح ، إذ كانت النفوس مهيأة لما يدعون إليه ، فلم يجيء الإسلام حتى كان هذا النظام على وشك الانقراض ، وقد شن الإسلام على البقية الباقية منه حرباً شعواء انتهت بمحوه محواً تاماً ، فلم نسمع بعد وفاة الرسول عليه السلام بأى حادث من هذا النوع ، حتى بين العشائر التى بقيت على دينها القديم

وقد اختلف الباحثون فى العوامل التى حملت العشائر السابق ذكرها على اتباع هذا النظام الوحشى ؛ وانقسموا بهذا الصدد إلى فريقين : فريق يعلله بالفقر ، وآخر يتلمس أسبابه فيما جبل عليه العربى من شدة الحرص على صيانة عرضه ، واتقاء ما عسى أن يصيبه بمكروه

فأما الفريق الأول[1] فيرى أن أسباب هذا النظام ترجع إلى الإملاق وعدم القدرة على تربية الأولاد ؛ وأن التبعة فى هذا تقع على بيئة بلاد العرب وحالتهم الاقتصادية : فإجداب أرضهم وضآلة دخلهم من مهنة الرعى التى كان يزاولها كثير منهم ، واحتكار التجارة فى يد أفراد من سراتهم ، وحياة الشظف التى كانت تعانيها الدهماء ، والمجاعات المتوالية التى كانت تنتابهم ، وكثرة تنقلهم فى طلب الكلأ لأنعامهم ... كل أولئك وما إليه جعل من الصعب على كثير منهم تربية أولاده ، واضطر القبائل السابق ذكرها إلى طريقة الوأد للتخلص من هذا العبء الثقيل . ويرى هذا الفريق فى قوله تعالى : ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ... ما يزيد مذهبه تأييداً

(١) من بين أفراد هذا الفريق الأستاذان روبرتسن سميث الأنجليزى ، ووسترمارك الفنلندى R. Smith, Westermarck

---

فهل رأيت أعظم نفساً من هذه النفس الروحانية ؟ وهل رأيت رجلاً يقدر الرجولة ولو فى عدوه هذا التقدير ؟ الرسول الكريم يطلب منه الإيمان فيأبى ، ولكنه يعاهده على السلام فيكون له العفو الجميل . إن فى ذلك لآية رائعة للقدرة حين ترحم . إن فى ذلك لفلسفة عالية لو أدركها العالم لتجمعت أطرافه ، ولرفرفت عليه أجنحة السلام

إنها الحكمة من الرسول الكريم الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه

(المنصورة) محمود البشبيشي

وهذا المذهب لا يتفق فى شىء مع حقائق التاريخ ولا مع المنطق السليم . فمن الثابت أن هـذا النظام لم يكن معمولاً به فى الطبقات الفقيرة وحدها ، بل كان عاماً عند الفقراء والأغنياء فى العشائر التى أخذت به . وقد حدثنا التاريخ عن بعض من وأدوا بناتهم فى العصر الجاهلى ، وذكر من بينهم عدداً كبيراً من سراة القوم وأغنيائهم ، ومنهم عمر بن الخطاب نفسه ... هذا إلى أن فى قصر الوأد فى العشائر السابق ذكرها على البنات دون البنين ، لدليلاً على أن الدافع إليه شىء آخر غير الفقر ؛ إذ لو كان الفقر هو الدافع إليه ، لألحق جميع الأولاد بدون تمييز بين الذكور والإناث ... ويزيدنا اقتناعاً بفساد هذا المذهب أنه لم يرد مطلقاً ذكر للفقر فى أى آية من الآيات التى نزلت فى وأد البنات . أما الآيات التى ورد فيها قتل الأولاد مقروناً بخشية الإملاق ، والتى يزعم أصحاب هذا المذهب أنها تؤيد وجهة نظرهم فهى لا تتحدث عن النظام الذى نحن بصدده ، بل تتحدث عن نظام آخر كان متبعاً عند بعض عشائر العرب ، وهو قتل الأولاد على الإطلاق بدون تمييز بين ذكورهم وإناثهم ، تحت تأثير الفقر وعدم القدرة على تربيتهم

* * *

ويذهب الفريق الآخر من الباحثين إلى أن أسباب هـذا النظام ترجع إلى مبالغة بعض العشائر العربية فى الحرص على صيانة أعراضها وانقاء ما يحتمل أن يصيبها بمكروه . فكان الواحد منهم يخشى ، إن هو أبقى على بنته ، أن تجر عليه وعلى عشيرته عاراً فى المستقبل ، إذا وقعت سبية فى يد الأعداء واستباحوا عرضها أو زلت فى حياتها وقدر لها السقوط . ويروى أنصار هذا المذهب قصة يدعون أن حوادثها كانت السبب الأول فى توجيه العشائر السابقة هذا الاتجاه . وخلاصة هذه القصة أن عظيماً من عظماء العرب يدعى قيس بن عاصم قد سبيت بنته فى غارة شنتها عشيرة معادية على عشيرته ، ثم عقد بين العشيرتين صلح كان من شروطه أن ترد السبايا فى مقابل فدية مالية . غير أن ابنة قيس هذا كانت قد شغفت حباً بمن وقعت فى يده ، فآثرت البقاء عنده ، ولم تقبل الرجوع إلى أبيها وعشيرتها . فآلى أبوها على نفسه ليئدن كل بنت تولد له ، وسارت عشيرته على سنته ، واقتدى بها بعض العشائر الأخرى

وهذا الرأى لا يقل فساداً عن الرأى الأول . فالقصة التى يستند إليها تبدو عليها علامات الاختلاق وأمارات الأساطير . هذا ، إلى أن ما تقرره يتعارض مع الدوافع التى تخضع لها الظواهر الاجتماعية فى نشأتها وتطورها . فمهدنا بهذه الظواهر أنها لا تنشأ من حادث فردى ، بل تنبعث من العقل الجمعى ، وترتكز على اتجاهات المجتمع وعقائده ونظمه العامة . على أن قيساً هذا قد شهد الإسلام ومات حوالى السنة العاشرة بعد الهجرة . فلا يعقل أن يكون هو الذى قد سن نظام الوأد عقب حادث حدث لبنت كبيرة له . إذ يترتب على ذلك أن نظام الوأد لم يظهر إلا قبيل الإسلام ببضع سنين ؛ مع أنه من الثابت أنه سابق لبعثة الرسول بعهد طويل ، وأنه كان على وشك الانقراض قبيل الإسلام ؛ وفضلاً عن هذا وذاك ، فإنه لم يرد فى أى آية من الآيات الخاصة بالوأد إشارة ما لسبب من هذا القبيل . ولو كان هذا السبب هو الباعث الحقيقى على الوأد ، لعنى القرآن بإظهاره وتقبيحه وبيان ما ينطوى عليه من سخف وانحراف عن التفكير السليم ...

* * *

وقد رأيت ، بعد أن تبين لى فساد هذين المذهبين ، أن خير طريق للوقوف على أسباب هـذا النظام هو الرجوع إلى الآيات القرآنية التى نزلت بصدده ، وربطها بما يتصل بها ، والتأمل فيما عسى أن تتضمنه من إشارة ظاهرة أو خفية إلى العوامل التى دفعت إليه . وقد هدانى ذلك إلى النظرية التى أعرضها فيما يلى :

كانت طائفة من عشائر العرب تلجأ إلى قتل أولادها تحت تأثير الفقر ورغبة فى التخلص من تكاليف تربيتهم . وهذه الطائفة ما كانت تفرق بين ذكور الأولاد وإناثهم . وهـذا هو ما تشير إليه الآية الواحدة والثلاثون من سـورة الإسراء : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم

كان خطئاً كبيراً) ، والآية الواحدة والخمسون بعد المائة من سورة الأنعام : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ... الآية)

وغنى عن البيان أن هذا نظام آخر غير النظام الذى نحن بصدد الكلام عنه

وكانت طائفة أخرى من العشائر العربية تئد البنات من أولادها على النحو الذى شرحناه فى صدد هذا المقال . ولم تكن تفعل ذلك خشية الفقر أو العار كما يزعم أصحاب المذهبين السابقين ، بل كانت تفعله بدافع دينى بحت . وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن البنات رجس من خلق الشيطان أو من خلق إله غير آلهتهم ؛ وأن مخلوقاً هذا شأنه ينبغى التخلص منه . وأصل عقائدهم هذه أنهم كانوا يقسمون ما تخرجه الأرض وما تنتجه الأنعام قسمين : قسم ينسبونه لآلهتهم (اللات ، العزى ، منأة ... الخ) ويعدونه من خلقها ، وهو قسم طاهر زكي ؛ وقسم ينسبونه لله تعالى[1] ويعدونه من خلقه ، وهو قسم كانوا يعتقدون أنه مدنس بالرجس ، فكانوا يحرمونه على أنفسهم ، أو يرون أن واجبهم الدينى يقتضيهم التخلص منه أو تقديمه قرباناً لآلهتهم ، وما زين لهم اعتقاده بصدد نتاج الحرث والأنعام زين لهم اعتقاد مثله بصدد نتاج الإنسان ، فقسموا ما يولد للانسان قسمين : قسم طاهر زكى من خلق آلهتهم وهو جنس الذكور ، وقسم من خلق الله وهو نوع الإناث ، وهو قسم مدنس بالرجس كانوا يحرمون بقاءه ويرون أن واجبهم الدينى يقتضيهم التخلص منه[2] ومن أجل ذلك كانوا يتقون ذبحهن ويؤثرون وأدهن عقب ولادتهن مباشرة حتى لا تنتشر دماؤهن فتنتشر معها ما تحمله من نجس ورجس[3] .

بل كان بعضهم يبالغ فى هذا التحرج فيئدهن بعيداً عن المنازل كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، ولم يقف أمر اعتقادهم هذا عند حدود العالم الطبيعى : عالم النبات والحيوان والإنسان ، بل جاوزوه إلى عالم السماء . فكانوا ينسبون لله تعالى من هذا العالم كل ما يعتقدون أنه من نوع الإناث ، ومن أجل ذلك نسبوا إليه الملائكة لاعتقادهم أنهم من هذا النوع

وإليك جميع الآيات التى عرضت لوأد البنات ، وسيتبين لك من التأمل فيها وربطها بعضها ببعض صحة ما ذهبنا إليه

١ — « ويجعلون لما لا يعلمون (أى لآلهتهم التى لا علم لها لأنها جماد . اهـ بيضاوى) نصيباً مما رزقناهم (من الزروع والأنعام اهـ البيضاوى) تالله لتسألن عما كنتم تفترون . ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم (أى لآلهتهم) ما يشتهون (يعنى البنين) وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به . أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون » (النحل ٥٦ — ٥٩)

فالآية الأولى تقرر عقائدهم فى نتاج الحرث والأنعام ونسبة بعضه لآلهتهم . والآية الثانية تقرر عقائدهم فى نتاج الإنسان ونسبة جنس الذكور لآلهتهم وجنس الإناث لله . والآية الثالثة تصف ما كان يفعله أحدهم إذ يبشر بالأنثى . وغنى عن البيان أن فى مجىء الآية الثالثة عقب الثانية مباشرة دليلاً على أن ما كانوا يسلكونه حيال البنات من وأدهن أو إمساكهن على هون كان مترتباً على نسبتهم الإناث إلى الله تعالى ، فبدون هذا التفسير يكون المعنى الذى تقرره الآية الثالثة مجرد استطراد لا تربطه بالحقائق التى تقررها الآيات السابقة أية رابطة منطقية وهذا ينبغى أن ننزه كلام الله عنه

٢ — « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا (أى لآلهتهم) فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم (عن طريق تقديمه قرباناً لهم مثلاً) ، ساء ما يحكمون . وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون . قد

(١) كان الوثنيون من العرب يعتقدون أن الله تعالى هو إله اليهود لأنهم عرفوه عن طريقهم ، وكانوا ينظرون إليه نظرة لا تختلف كثيراً عن نظرة المسلمين إلى الشيطان

(٢) كانت عقيدتهم فى الاناث تشبه من بعض الوجوه ما يعتقده عامتنا فى بعض أولاد يرون أنه قد « سبق فيهم الشيطان » أى اشترك فى تكوينهم .

(٣) يقرر كثير من ديانات الأمم البدائية أن الدم هو أهم موطن الزكاة أو الرجس فى الحيوان

خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله ، افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين » (سورة الأنعام ١٣٦ — ١٤٠)

فالآية الأولى تقرر ما كانوا يعتقدونه بصدد ما ينتج من الحرث والأنعام وتقسيمهم هذا النتاج بين آلهتهم وبين الله تعالى على النحو الذي شرحناه . والآية الثانية تقرر أن قتلهم أولادهم كان مبنياً على نفس الأساس الديني الذي بني عليه تقسيمهم السابق ، كما يستفاد ذلك من عطف هذه الآية على ما قبلها ، ومن تصديرها بقوله « وكذلك » ومن نسبة تزيين هذا الفعل إلى الشركاء (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم) ، ومن قوله « ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم » . ويستفاد من الآية الثالثة أن الذين كانوا يقتلون أولادهم على هذه الطريقة هم الذين كانوا يحرمون بعض منتجات الحرث والأنعام ، وأن الباعث لهم على الأمرين عقيدة واحدة ، والمقصود من الأولاد في هذه الآيات البنات وحدهن ، كما أشار إلى ذلك كثير من المفسرين[1] وكما يدل عليه السياق

٣ — « وجعلوا له من عباده جزءاً (وهو الإناث) إن الإنسان لكفور مبين . أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين . وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً (أي بالجنس الذي نسبه لله) ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، أشهدوا خلقهم ؟ ! ستكتب شهادتهم ويسألون » (الزخرف ١٥ — ١٩)

ولست في حاجة إلى أي تعليق على هذه الآيات ، فهي صريحة في المعنى الذي قررناه ، وخاصة إذا ربطت بالآيات السابقة

٤ — « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذن قسمة ضيزى ... إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ، وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن ... الآية » النجم ١٩ — ٢٧)

٥ — ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً . أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً » (الإسراء ٣٩ — ٤٠)

٦ — « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ؟ ! أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ؟ ! ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله ، وإنهم لكاذبون . أصطفى البنات على البنين ؟ ! مالكم كيف تحكمون ؟ ! ... » (الصافات ١٤٩ — ١٥٤)[1]

علي عبد الواحد وافي
ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة السربون

(١) انظر البيضاوي مثلاً في تفسير قوله تعالى : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم ... الآية » فقد ذكر ما نصه : « يريد بهم العرب الذين كانوا يقتلون بناتهم ... »

(١) ورد الوأد في آية أخرى ، ولكنها لم تشر إلى الدافع إليه ، وهي قوله تعالى : « وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت » (التكوير ٨ ، ٩)

الأنصار
المجلة الجديدة التي يقدمها
أصدقاء الثقافة الاسلامية
من الكتاب ورجال التربية والفن والصحفيين

ترسل الاشتراكات في مجلة « الأنصار » بعنوان « الرسالة » وتطلب الأعداد من دار « الرسالة » ومن مكتبة النهضة المصرية بشارع عدلي وشارع الدابغ وفروعها بالجامعة . وثمن العدد قرش صاغ

الاشتراك السنوي خمسون قرشاً